المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية – جامعـة سيدي بلـعباس
ISNN : 2170-0060 EISSN : 2602-523X
المجلـد 13 -- العدد 02 -- ديسمبر 2021 ص 68 - 83

مواقف القبائل الحدودية لبايليك الشرق الجزائري من النزاع الجزائري التونسي (1614 -1821)

The Positions of the Border Tribes of the Eastern Algerian Beylik from the Algerian-Tunisian Conflict (1614 – 1821)

د. عبد المنعم هامل Dr. Abdelmonaim hamel faycelhamel@yahoo.com	تاريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية	جامعة عباس لغرور - خنشلة - الجزائر

DOI :

الإرسال: 2021/10/10 **القبول**: 2021/11/05 **النشر**: 2021/12/27

ملخص

شكلت قضية الحدود إحدى القضايا الجوهرية في النزاع بين البلدان المغاربية والتي كانت سببا في معظم الحروب التي اندلعت نظرا لما كانت تمثله من رهانات سياسية واقتصادية واجتماعية، فكان كل طرف يدافع عن حدود دولته، لضمان سيادتها الترابية، وتميزت العلاقات بين الجزائر وتونس منذ أن ألحقت الجزائر بالدولة العثمانية بالنزاع والحروب، وقد أدى ذلك إلى إبرام معاهدة بين الجزائر وتونس في عام 1614 تم خلالها تحديد الحدود الفاصلة بين البلدين، وقد توصل البلدان إلى تجديد المعاهدة في 1628 ورغم ذلك فإن قضية الحدود لم يحسم فيها نهائيا، حيث بقيت مسألة القبائل الحدودية تشكل محور النزاع بين البلدين. حيث كان كل طرف يدعي أحقية سلطته عليها، وذلك بغرض استخلاص الضرائب منها، وتوظيفها في نفس الوقت، أثناء قيام الحروب ضد دولتها الأصلية. ومن هنا يمكن أن نطرح الإشكالية التالية: ما موقف القبائل الحدودية من النزاع الدائر بين الإيالتين الجزائرية والتونسية؟ وما مدى انعكاس هذا النزاع على القبائل الحدودية الجزائرية؟

والأهداف الذي نسعى إليه في هذا البحث هو فهم دوافع وأسباب التحركات والتنقلات القبلية وما ينجم عنها وموقف القبائل الحدودية في ظل سياسات حكام البلدين.

كلمات مفتاحية: بايلك قسنطينة؛ قبائل الحدود؛ الحنانشة؛ النمامشة؛ الفراشيش.

Abstract:

The issue of borders was one of the core issues in the conflict between the Maghreb countries, which was the cause of most of the wars that erupted due to the political, economic and social stakes it represented. Each party was defending the borders of its state, to ensure its territorial sovereignty. Relations between Algeria and Tunisia have been characterized since Algeria annexed the Ottoman Empire to

conflict and wars This led to the conclusion of a treaty between Algeria and Tunisia in 1614, during which the borders between the two countries were determined. The two countries reached a renewal of the treaty in 1628. Despite that, the issue of the borders was not finally resolved. Where the issue of border tribes remained the focus of the conflict between the two countries. where each party claimed its authority over it, This is for the purpose of extracting taxes from them, and utilizing them at the same time, during wars against its original state. From here we can raise the problem: What is the position of the border tribes towards the conflict between the Algerian and Tunisian deer? What is the extent of the impact of this conflict on the Algerian border tribes?

The objectives that we seek in this research are to understand the motives and causes of tribal movements and movements and what results from them and the position of the border tribes in light of the policies of the rulers of the two countries.

Keywords: Constantine Province; Border tribes; Hanencha; Namamecha; Frachiche

مقدمة

شكلت مسألة الحدود بين إيالتي الجزائر وتونس خلال العهد العثماني محور الصراع بين البلدين، حيث كانت من القضايا الشائكة التي كثيرا ما كانت تأزم العلاقات بينهما وهذا راجع إلى التداخل الطبيعي والقبلي بينهما، وقد أثرت هذه الازمات سلبا على العلاقات السياسية بين الأيالتين، وأدت إلى قيام حروب ومواجهات في فترات متقطعة خاصة مع نهاية العهد العثماني.

وقد اعتمد الجزائريون في حملاتهم على تونس على بعض القبائل التونسية الحدودية، كما كان بايات تونس يستعينون بشيوخ القبائل التابعة لبايلك قسنطينة، اثناء حملاتهم على الجزائر، وكان النظام الضريبي الذي اقره حكام البلدين، من العوامل التي أدت بالقبائل الحدودية إلى الهجرة في الاتجاهين المعاكسين، وكانت هذه الظاهرة أكثر انتشارا في مواسم جمع الضرائب، ولهذا نص أحد بنود المعاهدة السالفة على أنه لا يحق لحكومتي البلدين المطالبة مستقبلا بالأشخاص الذين يعبرون الحدود في اتجاه إحدى الإيالتين فهم يصبحون من رعايا الإيالة التي هجروا إليها.

وقد أثرت هذه الأحداث بشكل كبير في اضعاف نظام الحكم في إيالة الجزائر، وخاصة في بايلك الشرق إلى غاية سقوطه في يد الفرنسيين سنة 1837 م.

وتتضمن اشكالية الموضوع قضية تداخل الحدود بين الإيالتين الجزائرية والتونسية وأثرها في اندلاع الحروب والإغارات بينهما، وموقف القبائل الحدودية من النزاع الدائر بين الإيالتين.

ومن أجل معالجة الاشكالية قمنا بتقسيم موضوع بحثنا إلى أربعة محاور وهي:

1 – العلاقات التاريخية بين القبائل الحدودية التونسية الجزائرية.

2 – علاقات المصاهرة بين قبائل الشريط الحدودي الشرقي

3 – الخلافات بين الأيالتين التونس والجزائرية.

4 - وضعية القبائل الحدودية اجتماعيا واقتصاديا.

واعتمدنا في هذا البحث على مصادر محلية سواء جزائرية أو المصادر المحلية التونسية، وكذا المصادر الفرنسية التي تتحدث عن ابرز التطورات والأحداث في بايلك الشرق في نهاية العهد العثماني والتي اعتمدت بدورها على ما هو متوفر من مصادر محلية وروايات شفوية، وتضيف هذه الوثائق تفاصيل حول أبرز الأحداث التي عرفتها المناطق الحدودية لبايلك الشرق في هذه الفترة.

1 - العلاقات التاريخية بين القبائل الحدودية التونسية الجزائرية

عرفت الحدود الجزائرية التونسية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين عدم الاستقرار، وتجلى ذلك في الصراعات القائمة بينهما من حين إلى أخر وخاصة بين القبائل القاطنة على الحدود، فتارة من الجانب الجزائري وتارة من الجانب التونسي، كانت تعيش هذه القبائل في الغابات الشاسعة المستقلة، تعتمد على تربية الحيوانات وممارسة الزراعة، وفي غالب الأحيان كانت تخضع للإيالة الجزائر مدة من الزمن، ثم تتمرد عليها وتقدم ولائها لحكام إيالة تونس، وأحيانا أخرى ترفض الخضوع لكلا الإيالتين وتعتصم بالمناطق الجبلية منها قبائل خمير، القاطنة في المناطق الجبلية غرب باجة وطبرقة ويعود السبب في ذلك إلى رفضها دفع الضرائب.

كما وجدت قبائل أخرى استقرت على خط الطول الممتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي من بين هذه القبائل: قبيلة بنو مازن، وأولاد علي والمرازنة وقبيلة الوشلاطة وقبيلة أولاد سديره ومن قبائل الحدود أيضا: أولاد منصور وقبائل النهد، كانت في معظمها تميل إلى العيش شبه مستقلة، حيث سمح لها بعدها من مركزي الحكمين الجزائري

والتونسي التملص من الخضوع لأحدهما، وقد كانت تتعرض من ووقت لأخر لغزو باي تونس تارة وباي قسنطينة تارة أخرى من أجل دفع الضرائب (صورية، 2012 -2013، الصفحات 165 -166)

إن أهم نموذج قبلي يمكنه أن يجسد لنا هذا الدور بشكل واضح وجلي وبفاعلية قصوى نظرا إلى مقدار وحجم تأثيره على واقع العلاقات بين البلدين نجده متمحورا في قبيلة الحنانشة (معاشي، 2007، الصفحات 147 -148)

وكانت قبيلة الحنانشة من القبائل القوية التي شكلت مركز فعل في الأحداث السياسية منذ القرن الثامن عشر على الأقل، وكانت هذه القبيلة مشكلة من ثلاثة فروع رئيسية هي هوارة والهلالية وعرب بني سليم ولهذه القبيلة نفوذ قوي يمتد على رقعة غير قليلة من الأراضي التي تتداخل بين حدود البلدين تونس والجزائر، لأن نفوذها كان يمتد من تبسة إلى سوق أهراس ثم إلى عنابة ومنها إلى قلعة سنان وجبل مسيد إلى جنوب وادي مجردة وإلى جبل قلالة ودقمة وسلسلة كاف مسخوط وسلسلة الزعرورية وجبل تليس وبذلك تمكنت هذه القبيلة خاصة خلال القرن 16م وبداية القرن 17م من فرض سلطانها على تخوم (حدود) البلدين وبالتالي على قبائل وفروع أخرى في الغرب التونسي مثل شارن وأولاد بوغانم والفراشيش، بالإضافة إلى سيطرتها على أسر موسعة أخرى مثل بني معمري وأولاد على وبني زنداي وتوبسة وأولاد سلام وبني سقوال وبني منا الله بجانب القبائل الأخرى الموالية لها والمتوطنة على الحدود التونسية مثل: وشتاتة وورغنة.

وقد توازى هذا النفوذ وتزامن مع دور قبيلة الشابية التونسية التي حاولت هي الأخرى توحيد القبائل تحت سلطتها الروحية والسياسية. (عميراوي، 2002، الصفحات 25 -26)

وكانت قبيلة الحنانشة تقيم في فصل الصيف ووقت الحرب في قلعة سنان وفي الشتاء ووقت السلم كانت تقيم على ضفاف وادي مجردة، ويذكر الرحالة بيسونال الذي زار الجزائر سنتي 1724 - 1725 معلومات قيمة عن الحنانشة وخاصة عن شيخها بوعزيز بن نصير الذي وصفه بالسلطان وقال عنه إنه تمكن بما لديه من قوة قدرت بـ : 8000 رجل من محاربة كل من باي قسنطينة وباي تونس. ولشيخ الحنانشة مكانة مرموقة تضاهي

مكانة الباي إذ كان يحظى بامتيازات مثل ارتداء قفطان الباي واستعمال الختم الذهبي، بجانب ما كان له من حرية في جباية الضرائب والتصرف بها دون مراقب مع حرية الإشراف الإداري وقت السلم ووقت الحرب. وكانت لهذا الشيخ قوة عسكرية منها فرقة خاصة تسمى المزارقية، وكانت قبيلة الحنانشة تحتل المرتبة الثالثة في المنطقة بعد قوة كل من باي قسنطينة والأسرة الحسينية في تونس. وهذه المكانة كانت محكومة بعوامل أساسية منها موقعها الحدودي بين الأيالتين التين تضاربت مصالحهما، وهو ما جعل هذه القبيلة لا تدفع ضرائب إلى كلا النظامين التونسي والجزائري، كما ساعد على زيادة نفوذها عامل المصاهرة خاصة مع بايات تونس، وعقد حلفا مع كل من قبيلة النمامشة الجزائرية وقبيلة الشابية التونسية، هذه الأخيرة كان لها نفوذ ديني واسع امتد إلى كل من القالة وسوق أهراس وتبسة والأوراس، إذ كانت القبائل والأسر الثائرة بالأوراس مدعمة بقوة الشابية، كما اعتمدت الشابية على الحنانشة، حيث كانت هوارة الحنانشة أعلنت ولاءها للشابية، وعقدت الحنانشة تحالفا مع النمامشة التي كانت تعد من القبائل القوية بالشرق الجزائري والتي امتد نفوذها إلى نقرين في تونس، وكان الهدف من التحالف هو محاربة بايات قسنطينة مثلما حدث ضد الحاج أحمد باي سنة 1828م (عميراوي، 2002، الصفحات 26 - 28)

وقد شكلت تحركات قبيلة الحنانشة ضغط مستمر على حكام إيالة الجزائر وتونس، فنجد في تونس بداية التأثير عليها كان منذ العهد المرادي، فساندت هذه القبيلة أحد طرفي النزاع على السلطة في تلك الحرب التي قامت بين كل من محمد باي الذي اتخذ إلى جانبه الحاج المرادسي شيخ قبيلة الحنانشة فرع أولاد منصر ضد عمه محمد الحفصي، وظهر دورها من جديد مع اندلاع الصراع بين محمد باي وشقيقه علي باشا (العايب ، 2013- 2014 ، صفحة 69)

هذا الأخير الذي لجأ إلى الجزائر وبعد حنكة سياسية قام بمصاهرة سلطان بني منصر أحد فروع قبيلة الحنانشة والزواج من ابنته، وبذلك تمكن من تحقيق الانتصار على أخيه محمد والجلوس على كرسي الحكم بفضل دعم هذه القبيلة والسلطة الجزائرية عام (1677- 1686)م (أبي ضياف، 1999، الصفحات 63 - 65)

ثم عاد محمد باي للحكم مرة أخرى بين (1688 - 1699) وقد حكم كاهيته وصهره من أخته " ابن الشكر" الذي ثار عليه وتمكن بفضل مساندة القوات الجزائرية من الجلوس على كرسي الحكم عام 1695م (أبي ضياف، 1999، صفحة 60)

ثم يتجدد دورها في العهد الحسيني من خلال دعم الحرب التي كانت بين حكام تونس في سنة (1728 – 1729) أي بين حسين بن علي باي وابن أخيه علي باشا، إلا أنه هنالك من يقول أن اندلاع هذا الصراع قامت به هذه القبيلة نفسها، وخاصة أولا نصر الذي كان يتزعمهم الشيخ بوعزيز بن نصر المنظم إلى صف علي باشا، في حين انضم شيخ الحنانشة من فرع مناصر الشيخ " أحمد الصغير" إلى حسين باي وبالتالي يتضح أن الحرب الباشية الحسينية كانت حربا بين فرعي قبيلة الحنانشة كذلك.

ولقد أنهكت هذه الحرب الإيالة التونسية، حيث استمرت لأكثر من خمس سنوات كاملة انتهت باعتلاء علي باي كرسي الحكم عام 1740م (العايب ، 2013- 2014 ، الصفحات 69 - 70)

وعند سقوط قسنطينة اشتكى أحمد باي من القبائل الذين لجأوا إلى التراب التونسي وعملوا على إثارة الأعراش ضده فبعث إلى حاكم تونس يقول له فيها " ونخبرك محبنا فإن الجوامع وقائدهم عمار الشايب أتوك هاربين ولكن أنت جعلت عليهم قايدا وينزلون في إفريقية فإذا بهم أتوا بقائدهم ونزلوا في تبسة ويفعلون بالأمور الفاسدة التي لا ترضيك ويأتون بالخيانة ويسرقون من إبلنا وهويرنا...وكذا محبنا تأمر قايدهم وينزلوا بهم في نواحي سراط وإن بقوا هنا إن فعلت معهم العيب لا تلوم علينا ".

ومن جانب أخر حدث الشيء نفسه مع أعراش تونسية خلال ثورتها ضد بايات تونس كثورة علي بن غذاهم. أو مع قبيلة الفراشيش الذي ثار شيخهم الحاج حراث الفرشيشي ضد بايات تونس، فوجد مساعدة كبيرة من أطراف جزائرية (عميراوي، 2002، الصفحات 56 -57)

لا يعني هذا أن العلاقات الشعبية بين الطرفين كانت كلها تعاطفا، بل كانت في جانبها الآخر عدائية بحكم العصبية القبلية الانقسامية، إذ كانت تحدث حروب بين

الأعراش المتوطنة على تخوم (حدود) البلدين، مثلما هو الحال بين كل من الشعانبة في الجنوب الجزائري، وبني يزيد في تونس، إذ جاء في وثائق كثيرة أن قبائل أثارت الشغب على الحدود ، وبالرغم من وجود مثل هذه الصراعات الناتجة عن صفوف الأعراش المتعادية، إلا أن الطابع العام للعلاقات القائمة بين قاعدتي الهرم الاجتماعي لدى البلدين، كانت مترابطة بالتحالف والمصاهرة، والمصالح الاقتصادية المتبادلة، والوضع الثقافي والسياسي المتشابه، الأمر الذي أدى إلى نتيجة هامة يمكن توضيحها في أن علاقات التصادم كانت ظرفية ومحكومة إلى عوامل سياسية. خلاف علاقات التقارب التي كانت مستمدة من الروابط الحضارية والثقافية وحتى العرقية.

2 - علاقات المصاهرة بين قبائل الشريط الحدودي الشرقي

لأن الاختلاط الأسري كان كبيرا بين السكان خاصة بين المتوطنين على حدود البلدين إلى درجة القول " بأولاد" الذي يعني وطن هذه الأسرة أو تلك المنتشرة في البلدين، ومنهم أولاد سيدي عبيد، وأولاد يعقوب، وأولاد رضوان، وأولاد مومن، وبنو سليم، ووشتاتة، والجوامع وطرود (عميراوي، 2002، الصفحات 60 - 61)

ومن صور المصاهرة القبلية أيضا قرية جديدة التي تبعد 7 كلم عن قرية سيدي عبيد، فهذه القرية تآلفت مع نسيج اجتماعي غير متجانس، فجزء كبير من سكانها ذوو أصول تونسية مثل: دريد والهمامة والشابية، في حين انحدرت أجزاء منها من أصول جزائرية مثل: أولاد معافي ببسكرة والنمامشة وأولاد سيدي عبيد والسوافة، وقد ارتبطت هذه المجموعات بعلاقات المصاهرة بالإضافة إلى علاقات التحالف والمصالح المشتركة.

لتجسد قبيلة أولاد سيدي عبيد هذا النموذج بشكل أكثر، ففي المرحلة التأسيسية لهذه القبيلة والتي تبدأ من 1400م إلى قبل 1830 كعائلة مرابطية محدودة العدد حول منطقة قنتيس (تبعد 100 كلم غرب تبسة، يسميها الأهالي سيدي عبيد وفي جنوب شرق هذه القرية يوجد ضريح سيدي عبيد على ارتفاع 600 م) (كاستال، 2010، صفحة 87)، وجبل الفوة (يقع غرب مدينة بئر العاتر بتبسة، وهو المكان الذي اتخذه الشيخ سيدي عبيد للاعتكاف) (الماجري، 2013، صفحة 22) ببئر العاتر لتتحول بمرور الزمن عبر ظاهرتي الاندماج والمصاهرة للمجموعات الموجودة حول جبل قنتيس من قبل والعناصر

الوافدة علية من الجزائر وتونس كقبائل الشابية والهمامة والسوافة وطرود والنمامشة إلى قبيلة مؤثرة في تاريخ البلدين (الماجري، 2013، الصفحات 30 - 31)

ولعبت قبيلة أولاد سيدي عبيد المزدوجة الانتماء حيث تقطن أجزاء منها في تونس والأخرى في الجزائر أدوار هامة في تاريخ البلدين، في سعيها لإصلاح ذات البين وتخفيف حدة الشقاق بين القبائل الحدودية سيما بين قبيلة النمامشة الجزائرية وقبيلتي الهمامة والفراشيش التونسية والتي كانت تعيش حالة من السلب والنهب، هذا اجتماعيا أما ثقافيا ودينيا فالشيخ سيدي عبيد سعى لنشر العلم والمعرفة بين أبناء القبائل الحدودية، وتخرجت على يديه زعامات دينية في كلى الأيالتين من أمثال: أحمد التليل الذي توجه للأوراس والزيبان والصحراء داعيا لإتباع السنة وفي تونس الشيخ بلغيث القشاش (ولي صالح توفي إثر وباء ضرب أطناب تونس عام (1031هـ / 1622م)) (قاسم ، 2004، صفحة 57) .

كما وجدت في الجزائر قبائل ذات أصول تونسية مثل: قبيلة العبادنة (نسبة إلى شخص تونسي اسمه عبدون التحق بأولاد سيدي يحي بن طالب) (كاستال، 2010، صفحة 293)، والخنافسة (هي قبيلة جزائرية تسكن مع أولاد ابن ناصر مدينة عين صالح وضواحيها، تعيش في صراع مستمر مع التوارق وهم ينتمون إلى قبيلة دريد التونسية.) (الزبيري، 1972، صفحة 161)

وتبقى الزيجات السياسية التي جمعت بعض الفئات من البلدين تندرج ضمن هذا السياق، وقد جاءت الزيجات السياسية من أجل توسيع دائرة النفوذ وزيادة حجم الدعم المادي والعسكري لتحقيق أهداف مشتركة لكلا الطرفين المتحدين عبر هذا المظهر كالزواج الذي مررنا به سابقا والذي جمع بين علي باي وابنة سلطان بني منصر شيخ الحنانشة، وتعتبر ابنت هذا الأخير أم مراد باي تونس، الذي كان يعتبر نفسه سليل الحنانشة، وهو الباي الذي افتتح القرن الثامن عشر بصراع وحرب مع أيالة الجزائر، أثناء هجومه على قسنطينة سنة 1700م. (Mercier, 1903, p. 237)

إلى جانب الارتباطات الدينية (الطرق والمشايخ)، حيث كانت الجوامع والزوايا ومقامات الأولياء الموجودة سواء بالجريد التونسي خاصة والمناسبات الدينية من أهم

عوامل زيادة التواصل بين القبائل في كلا الجهتين (Feraud, 1874, p. 468) ، والتي تجعل منهم نسيجا اجتماعيا واحدا يرفض الفصل والتباين ويميل إلى الوحدة والتكامل.

ويذكر بيربروجر Berbrougge كنموذج عن هذه العلاقات استمرار التنقل والترحال لقبائل طرُودْ من سوف إلى منطقة الجريد التونسي، وقدوم قبائل تونسية إلى سوف بشكل تلقائي تبعا لمصالح الطرفين دون الاحساس بأي شكل من أشكال الحواجز (Berbrougger , 1860, p. 412)

والارتباط الثاني يتعلق بأنشطة المجموعات الاقتصادية كالرعي والتجارة، حيث تعرف المناطق الحدودية بين الجزائر وتونس سواء بمناطقها الريفية والحضرية نشاطا اقتصاديا كثيفا مفتوحا على الجهتين فلأهل واد سوف مبادلات اقتصادية متنوعة مع أهل الجريد التونسي، ولهؤلاء عدة محلات تجارية في مدينة تبسة، كما كانت مدينة الكاف التونسية مركزا تجاريا نشيطا، تلتقي عنده خمس طرق قادمة من الجزائر، أهمها طريق تبسة وقسنطينة والقالة، وبهذه المدينة تُقام كل يوم خميس سوق أسبوعية يقصده تونسيون وجزائريون على حد سواء (Berbrougger، 1860، الصفحات 410 -411)

وهذا التواصل نجده كذلك في المناطق الشمالية للأيالتين التونسية والجزائرية، مثل: عروش خمير والرقبة، الذين كانوا يرتادون أسواق القالة وسوق أهراس المجاورة لهم (صحراوي، 2013، صفحة 174)

وقد ظهر التواجد التونسي في الجزائر في العصر الحديث منذ العهد العثماني، وتمثل في هجرة بعض علماء وشيوخ الطرق الصوفية التونسية نحو الجزائر بسبب سوء سياسة بايات تونس وقمعهم لبعض شيوخ الطرق الصوفية مثل: الشيخ سيدي علي النفطي بمنطقة توزر في الجنوب التونسي أواخر القرن الثامن عشر توفي ودفن في جنوب الأوراس بقرية غوفي (تقع جنوب شرق ولاية باتنة ببلدية غسيرة دائرة تكوت على الطريق الولائي بسكرة باتنة عبر أريس تبعد 45 كلم عن بسكرة) سنة 1792م أما أتباع الطريقة فكانوا يأتون من الجنوب التونسي إلى قرية غوفي، ويمارسون طقوسهم الدينية ويزورون قبر شيخهم إلى غاية فترة الثلاثينات من القرن العشرين، وما يميز الهجرة التونسية نحو الجزائر خاصة في فترة القرن التاسع عشر والقرن العشرين تكاد تكون قليلة جدا، ويعود

سبب ذلك إلى الأوضاع السياسية التي تميزت بها تونس إذْ كانت أيالة مستقلة ولم تخضع للحكم الفرنسي على الأقل إلى غاية 1881 تاريخ فرض الحماية عليها. (بن زروال، 2013، صفحة 147)

3 – الخلافات بين الإيالتين الجزائرية والتونسية

لم تكن هذه الخلافات جديدة وإنما تعود إلى فترات سابقة منذ خضوع الأيالتين للحكم العثماني، ولكن منذ مقتل صالح باي 1792م انتهت فترة الرخاء في بايلك الشرق لتعم الفوضى والاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي أصبحت فرصة لكي تسعى من خلالها تونس إلى التخلص من هيمنة بايات الشرق عليها خاصة منذ فترة حكم حمودة باشا (1782م – 1814م) في تونس الذي عمل على النهوض ببلاده، وأول الإجراءات العملية التي قام بها (بولحبال، 2020، الصفحات 355 - 356)

هو انتخابه لاعيان نبغوا في السياسة وأعتضد برأيهم وحزمهم، نخص منهم بالذكر الوزير المخلص " يوسف صاحب الطابع" ورئيس الكتبة القدير " محمد بن محمد الأصرم" وقائد الجيش " سليمان كاهية " والناظر " محمد العربي زروق" وغيرهم، ومازال حمودة باشا من حين استلامه مقاليد السلطة يدبر في تأليف جند قوي مستوفي المعدات الحربية للهجوم على الجزائر، فلما اكمل استعداده هيأ محلة سيرها تحت قيادة وزير حربه سليمان كاهية فنزل على قسنطينة وألح في حصارها حتى أشرف على فتحها لولا إنخذال الأعراب الذين كانوا معه، فتفرقت العساكر التونسية وولوا الاعقاب سنة (1221 هـ/1807 م)، فلما بلغ الخبر حمودة باشا هاله المر وأوجمه، وعندئذ نهض رجال الدولة وفي مقدمتهم يوسف صاحب الطابع وهونوا عليه الخطب وجهزوا في الحين من أموالهم محلة اخرى بمهماتها ولوازمها، وصمموا على نزال الجزائريين، وخرج الجيش الثاني تحت نظر الوزير يوسف سنة (1222هـ/1807 م) والتقى الفريقان بمكان وادي سرُّاط قرب الحد الفاصل بين الأيالتين حيث انتصر الجيش التونسي (عبد الوهاب، 1953، الصفحات 156 - 157)

كما اتخذت العلاقات السياسية بين إيالتي الجزائر وتونس في هذه الفترة منحى أخر إذا دخلتا في صراع بحري ظهر خلاله شخصية الرايس حميدو الذي لم يتأخر في تقديم

خدماته لإيالة الجزائر بمناسبة اندلاع الحرب بين البلدين بحيث غنم الرايس حميدو سنة 1810م بضائع تونسية تقدر قيمتها بـ: 91385 فرنك، وفي سنة 1811 غنمت ست سفن بحرية يقودها الرايس حميد بضائع تونسية محملة على متن سفينة بريطانية قدرت قيمتها بـ: 53874 فرنك، كما استطاع الريس حميدو أن يغنم فرقاطة جديدة تابعة للأسطول التونسي واقتادها إلى الجزائر وقدمها هدية للداي الحاج علي باشا (تابليت، 2006، الصفحات 22 - 24)

وبقيت الأجواء على هذه الأحوال إلى حينما دفعت الأستانة للسعي والتوفيق بين الايالتين، فكلف السلطان العثماني كبير البوابين بالتوجه إلى الجزائر وتونس لحل الخلاف القائم بين الإيالتين. وقد واجه المبعوث صعوبات في الصلح بين الطرفين ولم يصل إلى النتائج المرضية التي كان يحاول الحصول عليها ولم يستمع لأقواله وعاد خائب الآمال إلى اسطنبول، وبذلك ثار السلطان العثماني محمود الثاني وقال: (أن من يتحمل مثل ذلك لا يعد من السلاطين)، فأمر بحجز ومقاطعة الجزائريين وسفنهم في جميع الممالك العثمانية كما أطلعهم في حال رفضهم للخضوع لأوامره بأنه سيوجه أسطول للجزائر لتأديب العصاة والخارجين عن القانون، كما عزم على قطع رأس الداي المتمرد الحاج علي باشا (التر، 1989، الصفحات 597 - 598) إلا أن داي الجزائر لم يهتم بتلك التهديدات وأمر باي تونس حمودة باشا (الكعاك، 2003، صفحة 309)

قبول دفع الضرائب كالعادة وربط صلات حسنة، وتخريب قصر الكاف، وجعل ارتفاع فسطاط تونس لا يزيد على النصف كما اتفق على ذلك سابقا، فرفض حمودة باشا ذلك، وأعلنت الحرب بين البلدين في شهر جويلية 1813.

وقاد الرايس حميدو القوات البحرية، وأغا الجزائر ونعمان باي القوات البرية. واغتنم حمودة باشا ثورة باي وهران واستعان بالفرنسيين في تدعيم قواته بالأسلحة والذخائر والرجال. وتعرضت القوات الجزائرية لصعوبات عدة، وكاتب الباي نعمان الباشا بالجزائر وابلغه ذلك وجرت محاولات للصلح لم تنجح، وعندئذ هاجم الجزائريون مدينة الكاف وانهزموا، ومات لهم رجال كثيرون وانسحبوا، وعاقب الآغا عددا من الشيوخ العرب بتهمة تواطئهم مع حمودة باشا الذي استغل تمرد باي وهران وهاجم الجهة الشرقية من الجزائر، غير أنه فشل في مهمته لتصدي قوات الجزائر له (العنتري، 2005، صفحة 80)

وبهذا استمرت العلاقات بين الجزائر وتونس بالسلم تارة والحرب تارة أخرى إلى حين تمكنت الدولة العثمانية بنجاح من عقد صلح نهائي بين الشقيقين يوم 14 مارس 1821م، وفرح جميع المسلمين واستشروا بإطفاء هذه الفتنة (الزهار، 1974، الصفحات 146 - 147)

4 - وضعية القبائل الحدودية اجتماعيا واقتصاديا

لقد تميز نمط عيش القبائل الحدودية بالازدواجية إذ هي تتأرجح بين الاستقرار من جهة والترحال الجزئي، وتجمع بين النشاط الزراعي والنشاط الرعوي وذلك وفق المتغيرات المناخية والاجتماعية والسياسية .

ونظرا لامتداد مجال القبائل الحدودية في بايلك الشرق، فإن الموقع الحدودي قبل حلول الاستعمار الفرنسي لم يكن يؤثر كثيرا على حياة ونمط عيش القبائل المتجاورة، بل كانت تلك المجموعات القبلية تشترك مع بقية المجموعات القبلية المحلية أو الخارجية في نمط عيشها وثقافتها، وبالتالي فلا الحروب بين الإيالتين في السابق ولا أوامر المنع الصادرة عن الحكام كان لها تأثير على أسلوب عيش أهالي المناطق الحدودية من الجانبين ولا على علاقات التواصل التاريخية، لذلك كان الفضاء الحدودي مفتوحا بين البلدين، وكان يتميز بخصوصيات بشرية متداخلة بين القبائل التونسية والجزائرية فتحرك القبائل في المجال الحدودي كان مرنا وسهلا ذلك أن الحدود بمفهوم الحدود العازلة لم تكن مطروحة لدى سكان هذه المجالات فقد كانت تربط العديد من القبائل الحدودية التونسية-الجزائرية علاقات نسب، أو الانتماء إلى نفس المجموعة القبلية فمثلا كانت تربط علاقة نسب بين قبيلة أولاد يحي بن طالب الجزائرية مع قبيلة الفراشيش التونسية،كما كان لأهالي سوف بالجزائر علاقات قرابة بأهالي الجريد التونسي، إلى جانب الامتداد الجغرافي لبعض القبائل داخل البلدين مثل قبيلة أولاد سيدي عبيد، ولئن عرفت كامل المنطقة الحدودية بين تونس والجزائر بطابعها الريفي، حيث كان المجال فيها غير محدد فالقبائل من الجانبين كانت تنتقل في هذا الفضاء دون ضوابط وحواجز وكانت القبائل تعبر في الاتجاهين وتتوزع على المجال الجغرافي بين تونس والجزائر وبالتالي فإن العروش المتقابلة على الحدود على الجانب التونسي هي: عروش أولاد على (الحوافظ وأولاد زيد من قماطة) واولاد الحاج والحوادث عرش (اولاد ناجي) والبعاصة والزعابة والروابح والحنادرة (أولاد وزاز) وأولاد سيدي تليل،

ويقابلهم من الجانب الجزائري فرق الجوامع وفرقة المرازقة وفرقة العبادنة وفرقة المغارسة وفرقة الهاملية وفرقة الطوايسية وأولاد سيدي مبارك بن صحراوي والنمامشة ثم اولاد سيدي عبيد. (رائسي، 2016، الصفحات 75 - 77)

وكان الفضاء الحدودي يمثل محورا مهما للمبادلات، إضافة إلى أهمية المعاملات الاقتصادية فقد كان السكان من الجهتين يعبرون المنطقة الحدودية في جميع الاتجاهات فمدينة الكاف مثلا كانت مركزا تجاريا نشيطا تنتصب بها كل يوم خميس سوق اسبوعية يؤمها إلى جانب أهالي البلاد التونسية رعايا إيالة الجزائر وتلتقي عندها خمس طرقات قادمة من الجزائر، لعل أهمها تلك التي تمر عبر تبسة والقالة وقسنطينة. أما على الجهة الأخرى أي في إيالة الجزائر فنجد سوق أهراس والذي تؤمه القبائل التونسية الحدودية كشارن وورغة وأولاد بوغانم، وتتركز المبادلات على الأغنام والحبوب والحلفاء وما يصنع منها من حصير وسجاد وقفاف...، كما لعبت سوق تبسة نفس الدور إذ كانت تجلب إليها أهالي الإيالة التونسية من القصرين وفوسانة وأفران وبودرياسة والطباقة وحيدرة وتالة وفريانة والجريد أي أهالي الفراشيش والهمامة،وكان لأهل الجريد عدة محلات تجارية في مدينة تبسة.

ويمكن القول أن المبادلات التجارية في المنطقة الحدودية كانت تتم في كنف الحرية التامة من الجانبين دون حواجز أو موانع تعيق تنقلاتهم، ولم يستطع الاستعمار الفرنسي أن يضع لها حدا إذ تواصل تهريب البضائع غبر الحدود التونسية – الجزائرية رغم التطورات السياسية لكلا البلدين. (رائسي، 2016، الصفحات 77 - 79)

خاتمة

تحكمت في العلاقات بين الإيالتين الجزائرية والتونسية أسباب عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية كهجرة القبائل الحدودية، وأخرى إقليمية تمثلت في أزمة الحدود التي كان لها دور كبير في توتر العلاقات بين الإيالتين إلى حد المواجهات العسكرية في عدة مواقع.

تميز موقف القبائل الحدودية لبايلك الشرق الجزائري بالازدواجية في النزاع الدائر بين الإيالتين الجزائرية والتونسية، فأحيانا تقوم بدعم ومناصرة السلطة الحاكمة في

الجزائر، وأحيانا أخرى تناصبها العداء وهذا راجع لأمرين الأول للحفاظ على مصالحها والثاني مرتبط بقوة أو ضعف السلطة المركزية.

تكاتف السلطة المركزية الحاكمة في الإيالتين الجزائرية والتونسية في فترات معينة من أجل قطع دابر القبائل المتمردة والتي تمتنع عن أداء الضرائب.

مساهمة القبائل القاطنة في الشريط الحدودي، في توطيد العلاقات بالمصاهرات تارة، وتارة أخرى تسببها في نزاعات بين الإيالتين الجزائرية والتونسية.

تحكمت القبائل الحدودية الكبرى عبر الطرق البرية في جميع المبادلات تجارية التي كانت تتم بين الإيالتين.

ساهمت القبائل الحدودية الكبرى خاصة الحنانشة والنمامشة وأولاد يحي بن طالب في المحافظة وحماية مجالها الحيوي في ظل غياب السلطة المركزية لبايلك الشرق.

ساهمت قبيلة أولاد سيدي عبيد المرابطية في الحفاظ على التوازنات في المنطقة الحدودية على اعتبار أن لها امتداد جغرافي داخل الإيالتين الجزائرية والتونسية.

يمكن اقتراح منفذ للبحث في موقف الطرق الصوفية من الصراع الدائر بين حكام الإيالتين الجزائرية والتونسية على اعتبار انتشار بعض فروعها في الإيالتين.

قائمة المراجع

1. أحمد أبي ضياف. (1999). اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (المجلد 02). (تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، المحرر) تونس: الدار العربية للكتاب.
2. أحمد الشريف الزهار. (1974). مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر. (أحمد توفيق المدني، المحرر) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر .
3. أحمد قاسم . (2004). إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم (1574 – 1600). (عبد الجليل التميمي، المحرر) تونس: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات.
4. أحميدة عميراوي. (2002). علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي. قسنطينة: طبعة دار البعث.

5. إدريس رائسي. (2016). القبائل الحدودية التونسية-الجزائرية بين الإجارة والإغارة (1830 – 1881). تونس: الدار المتوسطية للنشر.

6. الأزهر الماجري. (2013). القبيلة الولائية والاستعمار: أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس 1830-1890 ، مسار التفكيك وآليات المقاومة. تونس: المغاربية للطباعة والنشر.

7. بيار كاستال. (2010). حوز تبسة- دراسة وصفية جغرافية تاريخية لإقليم تبسة وأعراشه من فجر التاريخ إلى بداية القرن العشرين. (العربي عقون، المترجمون) الجزائر: مطبعة بغيجة حسام.

8. جمعة بن زروال. (2013). هجرة زعماء الطرق الصوفية التونسية نحو الجزائر ونشاطهم السياسي والديني. الملتقى الدولي حول التوصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881- 1954 (صفحة 147). الوادي : جامعة الوادي .

9. جميلة معاشي. (جوان, 2007). أسرة أحرار النمامشة بين بايات تونس وبايات قسنطينة. المجلة التاريخية المغاربية، الصفحات 147 - 148.

10. حسن حسني صالح عبد الوهاب. (1953). خلاصة تاريخ تونس. تونس: دار الكتب العربية الشرقية.

11. حصام صورية. (2012 -2013). العلاقات بين إيالتي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر ميلادي. وهران: كلية العلوم الإنسانية جامعة وهران.

12. رياض بولحبال. (2020). الخلافات بين إيالتي تونس والجزائر في نهاية العهد العثماني وأثرهفي اندلاع الحروب والغاراتمن خلال وثائق الأرشيف التونسي. تأليف علي العبيدي، صفحات من تاريخ الجزائر (الوسيط -الحديث - المعاصر)، دراسات تاريخية، الجزء الأول (الصفحات 355 - 356). تلمسان - الجزائر: النشر الجامعي الجديد.

13. عثمان الكعاك. (2003). موجز التاريخ العام للجزائر : من العصر الحجري إلى الاحتلال. (أبوالقاسم سعدالله، المحرر) بيروت-لبنان: دار العرب الإسلامي للنشر والتوزيع.

14. عزيز سامح التر. (1989). الأتراك العثمانيون في شمال إفريقي. (محمود علي عامر، المترجمون) ، بيروت-لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

15. علي تابليت. (2006). الرايس حميدو (أميرال البحرية الجزائرية 1770 -1814). الجزائر: منشورات ثالة.

16. كوثر العايب . (2013- 2014). العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات 1714- م 1830، . الوادي : رسالة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر ، جامعة الوادي .

17. محمد الصالح العنتري. (2005). فريدة المنسية في حال دخول الترك على قسنطينة واستيلائهم على أوطانها (تاريخ قسنطينة). (يحي بوعزيز، المحرر) الجزائر: دار هومة للنشر و التوزيع.

18. محمد العربي الزبيري. (1972). التجارة الخارجية للشرق الجزائري. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

19. نور الدين صحراوي. (2013). المراقبة الفرنسية للحدود الشرقية وتأثيرها على التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881- 1954 من خلال الوثائق الأرشيفية. الملتقى الدولي حول التوصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس 1881- 1954 (صفحة 174). الوادي: جامعة الوادي. تاريخ الاسترداد 10 /11 نوفمبر, 2013

20. Adrien Berbrougger .(1860) . Des frontiers de l’Algérie .R evue Africaine ،04 ، .412

21. Charle Feraud .(1874) .Note sur Tébessa .Revue. Africaine.468 ،18 ،

22. Ernest Mercier .(1903) .Histoire de constantine .Constantine :J. Marle et F. Biron, Imprimeurs-Editeurs.